الجسـر

يطيب لي كل يوم أن أقضي بعضاً من وقتي الممل القلق بالتنزه على الجسر الحديدي الذي يربط شاطئ النهر العظيم.. لم تكن نزهة بالمفهوم العام أكثر من أنها عادة أدمنتها لأفرج عن كروبي وهمومي وضجري.. إلى درجة أنني كنت أخاف أن أقدم في يوم من الأيام على تقليد بعض شباب العصر المتدني بالانتحار..
وكنت أضحك بمرارة عندما أفزع مع من يفزع من مشاة الجسر والتجمهر معهم والتطلع لشخص ما قفز منتحراً من على الجسر إلى مياه النهر الهائج.. كنت أقول لنفسي وأنا أضحك ليس لديهم أي مبرر للانتحار كما هو لدي.. أو ليس لديهم اقتناع بالإقدام على ذلك كاقتناعي، ومع ذلك يساقون إلى حتفهم هذا كأنهم حيوانات معروفة قرأت عنها تعيش في القطب الشمالي تهوى الانتحار للانتحار نفسه.
أنا لدي ألف سبب وسبب وألف مبرر ومبرر للقيام بالانتحار وقذف جسمي إلى غياهب النهر الهادر..
ذقت مرارة الاعتقالات، وما تسبب من امتهان لكرامة الإنسان بتلك الوسائل الحديثة النابغة باستخدام أنواع جديدة من ألوان التعذيب وجرح الكرامة وإخماد النفسية وإذلال الإنسانية، وتشعر بأن ما تلاقيه عبث وإباحة لا مبرر لهما..
وتتألم لجار لك في زنزانته يئن أول المساء ويصيح بصوت مبحوح يصك أذنيك من هول ما يقاسيه، وتتألم أكثر عندما يهمد في آخر المساء، وتسمع وإياه صوت نباح كلب متشرد تتمنى أن تكون هو... هذا الكلب الشريد..
وفعلاً أحسد مع جاري ذلك الكلب الشريد، أحسده لأنه رغم جوعه وتعرضه للمخاطر ينبح بصوته العادي.. حتى الحشرة في مواجهتها للحياة مخاطرها، اعتقد بأنها لن تتعرض لأذى أكبر مما تعرضت له، وتعرض له جاري في الزنزانة المجاورة... وأمثالنا في عشرات بل مئات من الزنزانات ...الخ.
وإذا ما قدر لنا الخروج سنحرم من العمل وستقطع أسباب الرزق أمامنا وسنكون عالة على أطفالنا ونسائنا المعدمين، والذين ربما جنينا عليهم امتهان أعمال قذرة مخزية لكي يوفروا لقمة العيش ويزيدوا من تعاستنا وتوجهنا للإقدام على الانتحار..

هكذا كنت أقضي بعضاً من وقتي اليومي الممل على الجسر أذرعه من الطرف إلى الطرف مشياً، لا أتوقف إلا عند تجمهر الناس وضجتهم لاكتشافهم انتحار شخص جديد. أطالع أخبار انتحاره وأسبابه.. بأنه فشل في الحب.. فشل في الدراسة.. فشل في حياته الزوجية ..الخ!.
استطعت التخلص من بعض عادات سيئة كانت مستحكمة في كالتدخين.. وشرب الخمرة، ولعب القمار.. ولكنني لم أفلح في إنهاء عادتي بالتمشي على هذا الجسر في نفس الساعة والوقت، أصبحت مدمنا لهذا الوقت بشكل غريب.

* * *

في مكان اعتدت أن أوقف فيه سيارتي كل يوم للالتقاء باصدقاء وزملاء نقضي فيه بعضاً من الوقت، وفجأة وبدون أن أتوقع، داهم السيارة ثلاثة أشخاص بينما كنت أتأهب لإطفاء محركها وإقفال نوافذها وأبوابها...
مسدس الجالس بجواري موجه إلى صدغي الأيمن ومسدسان آخران لكزا رأسي من الخلف.

- اتجه إلى الخلاء..
- أي خلاء .. ؟؟
- بسرعة .. إلى الخلاء.

أصبح لكز فوهات المسدسات لكمات حادة.

* * *

ما زلت على الجسر أذرعه مشياً ذهاباً وإياباً.. فزعت مع من فزع من الناس كالعادة.. كنت قد مللت مثل هذا الفزع المعتاد، فهو حادث انتحار لفاشل في الحب أو الدراسة أو الحياة الزوجية، لكنه كان فزعاً هذه المرة أكبر مما تصورته وتصوره الفزعون المتجمهرون..
لقد حدث حادث مروع.. لقد صدمت شاحنة عسكرية سيارة صغيرة تقل بعض الركاب وقذفت بها ومن فيها إلى النهر..
وارتكزت على مقدمتها وهي تهوي تشق الماء، فانقذف حواليها كأنها سباح عالمي يقفز إلى المسبح.

* * *

توقفت مستجيباً للأمر بالسيارة داخل ساحة كبيرة بعد أن اجتزت بها البوابة الحديدية المكللة بالجند المدججين بالسلاح.

عصبت عيناي وقادني الثلاثة بسرعة كأنهم لم يتناولوا وجبه الإفطار والغداء.
وأجلست على كرسي، ثم بعد دقائق لم أشعر إلا بأنني قد علقت من رجلى بحبل إلى سقف المكان أو الغرفة، وانهالت على جسدي بعشوائية ضربات مؤلمة بعصى غليظة، كان الألم قد أفقدني وعيي..

* * *

كل الفزعين وأنا منهم قد اشرأبت أعناقنا على حافة الجسر الحديدي تشاهد غوص تلك السيارة الصغيرة بركابها.
كان المفروض على الأقل أن يكف بعض المفزوعين وأنا منهم عن متابعة نهاية المأساة.. لكننا ولا ندري جميعاً أنا وكل المفزوعين المتجمهرين سر إصرارنا على البقاء..

* * *

أفقت لا أدري بعد كم من الوقت ربما أيام.. تأملت نفسي ملياً.. الدماء جامدة على خدي وفي رأسي بعض جروح تحكني، وأريد أن أنهشها بأظافري ..ثوبي ممزق، وعضلاتي مخدرة، أما قدماي فقد تورمتا.. وإن بان التورم ضامراً كفاكهة سقطت من شجرتها ومكثت عدة أيام.. ودخل على صبي صامت لا ينظر إلا إلى أمام وجهه، وبيده صحن فيه بعض الطعام طرحه وانصرف.

* * *

فجأة انشق ماء النهر عن السيارة الصغيرة بمن فيها متجهة نحو أقرب شاطئ إلى الأمان، ودوت صيحات التهليل والفرحة من جموع الفزعين وأنا منهم نكاد أن نقذف بأجسامنا إلى النهر لمساعدة السيارة للوصول إلى شاطئ الأمان.. نصيح ونصيح ودموع الفرح تنهمر، والإيادي تلوح..

* * *

كنت جائعاً جداً.. تأكدت من ذلك بعد أن لسمت بيدي بطني التي كانت مجوفة إلى الداخل عكس بقية أعضاء جسمي المنفوخة إلى الخارج. هجمت على صحن الطعام وما كدت ابتلع أول لقمة حتى انكفأت بوجهي على صحن الطعام إثر ركلة عنيفة من حذاء أحدهم صادفت موقعاً مؤلماً بالنسبة لي فوق الكلية المستأصل نصفها في عملية جراحية في الماضي..
وعلقت مرة أخرى، ولكن من يدي هذه المرة!!..

* * *

وانهالت على جسمي ضربات عصا غليظة.. وكان الألم شديداً إلى درجة أفقدني وعيي..

* * *

تحول تجمهر الفزعين وأنا منهم إلى مظاهرة صارخة.. الأيدي مرفوعة بعلامة النصر والصياح بالشعارات الحساسة يصم آذان المدينة.. والسيارة الصغيرة ما زالت تجاهد بفزع لكي تصل إلى شاطئ الأمان..

وشاطئ الأمان صعب فهو مرتفع ترابي يفضي إلى مقهى يسترخي فيه أفراد كأنهم من أقوام أخرى سابحون في عوالم أخرى مخدرون وواجمون، بعضهم يطرح رجله على الرجل الأخرى والآخرون تتدلى رؤوسهم فوق أكتافهم كأنهم مستغرقون في تفكير عميق.. وبعضهم يبول خلف المقهى أو إلى النهر العظيم مباشرة..

* * *

كان النور قوياً مسلطاً على وجهي.. شعرت بالدفء نوعاً ما، لكنه تحول إلى نار حامية بعد لحظة...

- تذهب إليه دائماً في ذلك الوقت...؟
- من هو...؟

وانهالت صفعة على خدي من كف برزت كومضة لم أعرف من أي مصدر أتت، كنت أعتقد بأنني وحدي في تلك الغرفة مع الضوء الساطع الحامي وصوت فقط.. وكنت أتمنى أن يكون الصوت هلامياً أو صوتاً بلا جسم... ولا أذرع تصفع ولا أرجل تركل ولا أسنان تعض ولا فم يبصق..

- عبده فارع الملقب (بالحسين) وزمرته... !!!
- لا أعرف شخصاً بهذا الاسم ولا بلقبه..

وانهالت ركلة قوية من الخلف بقدم، أعتقد أنه ينتعل حذاء جندي أو شرطي أصابت موقع الألم في نصف الكلية الباقية اليمنى...

- عبده فارع.. موزع السلاح والمؤامرات للقيام بالإنقلاب على الوضع.. ألا تعرفه..! ؟؟.
- لا أعرفه.. ولم أسمع باسمه.

وعلقت من أطرافي الأربعة بواسطة أشباح برزت من الظلام إلى النور.. وفقدت وعيي.

* * *

كانت السيارة مع من بداخلها متجهة بسرعة، وقد لمست عجلاتها الأمامية بداية المرتفع الترابي المؤدي إلى المقهى.. وكم علت الفرحة وجوه الفزعين وأنا منهم لهذه المعجزة التي لم تكن تخطر على بالنا.. وعلا صياحنا الفرح بدموع حارة..

* * *

قذف بي إلى مكان أوسع في تلك الغرفة الزنزانة ليستقبلني شباب راقدون على ظهورهم وعلى بطونهم .. بلا اكتراث..
وتكومت بأشلائي المبعثرة وأفكاري الوجلة الخائفة في زاوية من الزوايا..
لكنني شعرت بالأمان والطمأنينة في هذا الحشد المكتظ داخل هذه الغرفة الطويلة. لا أتذكر بأنني استرددت أنفاسي حتى جاء عملاق غريب بصوت وأسلوب همجي حيث أخذني فجأة من الغرفة الطويلة ومن بين الحشد المكتظ المستلقي على ظهره وبطنه.

* * *

كانت السيارة بمن فيها تجاهد بعجلاتها الأمامية للصعود من النهر إلى حافة المقهى المسترخي عليه أناس بعضهم واضع رجله على الأخرى، والبعض الآخر متكئون برؤوسهم على أكتافهم، وبعض منهم يبول خلف المقهى إلى ماء النهر العظيم.. كانت العجلات الأمامية للسيارة تدور بسرعة جنونية، ولكنها في مكانها.. والمسترخون كما هم في أماكنهم أصنام وهياكل جامدة.. بلا حراك..
وعلت أصوات المفزوعين وأنا منهم يهيبون بالمسترخين في المقهى بتدارك الموقف، والوثوب صفاً واحداً لإنقاذ السيارة ومن بها..

* * *

قذف بي إلى غرفة صغيرة مربعة مضاءة بمصباح علوي في السقف قوي وشديد.. كان هنالك كرسي جلست عليه تلقائياً.. الآن أنا طليق العينين.. أشاهد بنظري كل جوانب الغرفة بحرية لم تتح لي في أي وقت مضى سابقاً..
ودخل ثلاثة رجال لا أعرفهم ولا يعرفونني، ملامحهم غريبة علي نوعاً ما، ويبدو من شكلهم أنهم بدو من (المنطقة الشرقية)، هذا ما اعتقدته، وبدأ الثلاثة بالتحرش بي، كأننا في شارع عام، كلهم عمالقة أصحاء، وأنا مريض.. وبدأ العراك الذي لم يكن متكافئاً.. أنا النحيل الذي لم أتضارب مع أي حشرة في حياتي فما بالك ببشر.. واستغل الثلاثة ضعفي، فتفننوا في

ممارسة أنواع رهيبة من الضرب.. لم تكن تخطر في بالي ولا في بالهم.. وفقدت وعيي..

*** * ***

استمرت السيارة بالصعود بعجلاتها الأمامية نحو المقهى محاولة ارتقاء المرتفع الترابي، حتى تكاد تصل إلى القمة فتنهار قواها.. تبدأ تنزلق إلى الوراء نحو النهر الهائج.. لم تنفع فراملها في توقيفها عن الهبوط إلى النهر العظيم.. كنت أتوقع خروج الركاب من داخلها.. طلباً للنجاة.. لكنهم تسمروا بداخلها عن قناعة..

*** * ***

- **تأخذ من لديه أسلحة توزعها على مجموعتك؟**
- **لا أفهم ما تقول..**
- **خبيث.. ولعين.. وقذر..**

وانهالت على وجهي بعض لكمات نزف لها أنفي وشفتاي بالدم.

- **ألم تأخذ منه أسلحة؟**
- **لا...**
- **أقلام.. ورق كتاب؟..**
- **ربما .. وربما ورقة، وربما كتاب.. لا أذكر..**
- **يا ابني كنت تريح نفسك وتريحني، فهذا اعتراف واضح لا داعي بأن نستخرجه منك بكل تلك الطرق التي أتعبتنا..**
- **أي اعتراف..!؟**

*** * ***

عادت السيارة بمن فيها للصعود وهي تصدر أزيزاً صارخاً، والدخان ينبعث من خلفها، عجلاتها كانت تدور بسرعة لكنها لم تكن تحقق تقدماً ملموساً.. كادت أن تقترب من قمة المرتفع الترابي اللزج.. كادت أن تلامس المسترخين على المقهى، صحت بأعلى صوتي طالباً منهم الإمساك بها.. أن يعملوا أي شيء.. أن يمسكوها بأظافرهم.. يعضوا عليها بأسنانهم..

*** * ***

في الصباح جلت بنظري على وجوه زملاء الغرفة الطويلة عسى أن أعرف أحداً منهم، ملامحهم تدل على أنني أعرفهم جميعاً وربما لا أعرف أحداً منهم إطلاقاً منهم شباب في عمر الزهور تنوعت ملامحهم .. أو ربما كانت غير هذه الملامح في السابق.. أكيد تغيرت.. معالم كثيرة في وجوههم

وأياديهم وأرجلهم.. ومنهم رجال في منتهى الوقار شاهدت أحدهم يتناول كوب الماء بكلتا يديه.. في الرسغ كانت أصابع يديه مشلولة ضامرة، كل إصبع متجهة عكس الأخرى.. وآخر لا يستطيع الحراك بجسمه الأسفل.. يتأذى ويتبول عن غير إرادته... وقد وضعه زملاؤه في ركن مناسب له ولهم..

وآخر كان مبطوحاً دائماً على ظهره لا يستطيع النهوض والتحدث، ويطعمه زملاؤه وهو على تلك الحالة.

وآخر منزوٍ في ركن من الغرفة عرفت بعد ذلك أنه لا يبرحها مطلقاً، يبكي دائماً بصمت ولا دليل على بكائه سوى دموعه المنهمرة الدائمة التي لم تنضب دقيقة واحدة ليلاً ونهاراً..

منهم دكاترة طب، وأساتذة جامعة، وطلبة، وصحفيون، وأدباء ومفكرون، وساسة، وموظفون عاديون، بل ووزراء سابقون.. متكاتفون جميعاً لإزالة آلامهم في تضميد للجروح وتهدئة للنفسية وإصلاح المرقد ونظافة الغرفة.. ينشدون في المساء والصباح نشيداً حزيناً كأنهم (يرتلون سوراً من القرآن الكريم).. وأنا معهم..

* * *

تدحرجت السيارة بمن فيها إلى الوراء.. إلى النهر العظيم الهائج.. كنت في حالة جنون أصيح. وبح صوتي وتشنجت وأنا على الجسر، بعيداً عنها وعمن في داخلها، كنت أخبط برجلي الأرض وبيدي حديد الجسر، وأنا أصيح وأصيح عسى أن يعملوا شيئاً لإنقاذها وإنقاذ من في داخلها.. واستكانت السيارة بمن فيها لكي يلتهمها النهر العظيم الهائج.. كنت أصيح ويداي تشيران إلى من فيها بأن يخرجوا ويتركوها تغرق.. لكنهم كانوا مصرين مسمرين إليها عن قناعة، وليس لديهم بديل سوى أن يغرقوا معها.. وغرقت السيارة بمن فيها.. وصياحي ما زال يعلو ويعلو.. وكان الألم قد أفقدني وعيي.

صنعاء 1983/4/15